

الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعد من غرق مع فرعون⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام مكية

الرَّ كِتَبٌ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ لَدُنِّكَ حِكْمٌ حَبِيرٌ ﴿١﴾

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً أي: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾⁽⁵⁾ وقيل: منعت من الفساد من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح قال جرير:

ابني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم إن اغضبنا
وعن قتادة: أحكمت من الباطل
﴿ثم فصلت﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد، والأحكام والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي: بين ولخص، وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قلنا: ما معنى ثم؟ قلنا: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت صفة له، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة ثانية ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت أي: من عنده إحكامها وتفصيلها وفيه طباق حسن؛ لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي: بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ إِلَيْنَا لَكُنَّ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ﴿٢﴾

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون أن مفسرة؛ لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وَأَنْ أَسْتَعْتَبُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوِيَ إِلَيْهِ يَتَّبِعُكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَيْنَا أُنزِلَ سُورَةُ
وَوُضِعَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ
﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إن أردني الله بضر هل هن كاشفات ضرره أو أردني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾⁽¹⁾.

فإن قلنا: لم نذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قلنا: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريده منهما ولا مزيد لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن نكر المس وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدل بما نكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخِذُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ بَدْرِي لِيُنصِرَنِي وَمَنْ سَلَ فَإِنَّمَا يَعْضَلُ عَلَيَّ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختيابه إلا نفسه، ومن أثار الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضرر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إثبات الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكول إلي أمركم وحملكم علي ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاتِكِينَ ﴿١٨﴾

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال آذاهم وإعراضهم حتى يحكم الله لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: ﴿إنكم ستجدون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني﴾⁽²⁾ يعني: أتي أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة. قال أنس: فلم نصبر، وروي: أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم نخل عليه من بعد فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا نواب. قال: فأين النواضع؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثره. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: قال: فاصبروا حتى تلقوني، قال: فاصبر. قال: إن نصبر، فقال عبد الرحمن بن حسان:

إلا أبلغ معاوية بن حرب أمير الظالمين لشاكلامي
بأناصبرون فمنظروكم إلى يوم التغابن والخصام⁽³⁾
عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة يونس أعطي من

(1) سورة الزمر، الآية: 38.

(2) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ

للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (الحديث رقم: 2792)

(3) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، والثعلبي الزيلعي 142/2.

(4) سورة يونس، الآية: 1.

ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة =

﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراءً منه على اختصاص الله بالعبادة ويدل عليه قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله إنني لكم منه نذير كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبِ الرِّقَابَ﴾⁽¹⁾ والضمير في منه الله عز وجل أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته كقوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾⁽²⁾ أو هي صلة لنذير أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قُلْتُ: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾؟ قُلْتُ: معناه: استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾⁽³⁾ ﴿بِمَتَعَكُم﴾ يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن يتوفاكم كقوله: ﴿فَلَنُدِينُنَّ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ﴾⁽⁴⁾ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاءً مفضلاً لا يبخس منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وَأَن تَتَوَلَّوْا﴾ وإن تولوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو: يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والتغل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: وإن تولوا من وإلى.

فإن قُلْتُ: كيف قال⁽⁷⁾: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل قُلْتُ: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم رجع التفضل واجباً كندور العباد. والمستقر مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ﴿كُلِّ﴾ كل واحد من الدواب ورزقها، ومستقرها، ومستودعها في اللوح، يعني: نكرها مكتوب فيه مبين.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْبَسُهُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَكِنَّ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَعْرُوفُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُولَوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سَعْرٌ شَيْئٍ ﴿٧﴾

﴿يُولَوْنَ صدورهم﴾ يزورون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرة، ومن أوزر عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ليستخفوا منه﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنين على أوزارهم، ونظير إضمار: يريدون لقود المعنى: إلى إضماره الإضمار في قوله تعالى: ﴿أضرب بعضاك البحر فانفلق﴾⁽⁵⁾ معناه: فاضرب فانفلق ومعنى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ويزيدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضاً كراهة لاستماع كلام الله تعالى

أَلَا إِنَّكُمْ يَتَوَنَّ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعْمِلُونَ تِيَابَهُمْ يَتَكَّمُ مَا يُخَيَّرُونَ وَمَا يُلْمُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْزُقُهَا مِنْ غَيْرِهِ وَسَوْفَ يَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ قَدْرَهُ ﴿٦﴾

= الدنيا، أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل، ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة، فمحمول على أن الله عز وجل لما وعدهم فضله، ووعد خبير، وخبره صدق ووجب وقوع الموعود، أي: يستحيل في العقل أن لا يقع للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المنكسر، هذه قاعدة أهل الحق، وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى، إنما التوبة على الله، والله الموفق.

(1) سورة محمد، الآية: 4.
(2) سورة البينة، الآية: 2.
(3) وسورة الأحقاف، الآية: 13.
(4) سورة النحل، الآية: 97.
(5) سورة الشعراء، الآية: 63.
(6) سورة نوح، الآية: 7.
(7) قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبيهمة، أو مكلف في

وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: لبيلوكم يريد ليفعل بكم ما يفعل المبطل لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قُلْتُ: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قُلْتُ: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً وسمع أيهم أحسن صوتاً؛ لأن النظر والاستماع من طرق العلم.

فإن قُلْتُ: كيف قيل **﴿إيكم أحسن عملاً﴾** وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتتها إلى حسن وقبيح؟ قُلْتُ: الذين هم أحسن عملاً هم: المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عبادته، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبهياً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين وترغيباً في حياة فضلهم، وعن النبي ﷺ: «لبيلوكم إيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»⁽¹⁾ وقرئ: **﴿ولئن قلت أنكم مبعوثون﴾** بفتح الهمزة ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق عنك تشتري لنا لحماً وأنت تشتري بمعنى: علك، أي: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه ولا تبتوا القول بإنكاره لقالوا: **﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾** باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن قلت معنى نكرت، ومعنى قولهم: إن هذا إلا سحر مبين، أن السحر أمر باطل وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به، أو اشاروا بهذا القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: إن هذا إلا ساحر يريدون: الرسول، والساحر كاتب مبطل.

وَلَيْنَ أَقْرَبًا عَنَّمُ الْعَذَابَ إِنَّ أُمَّهُ مَدْرُودَةٌ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

﴿العذاب﴾ عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين **﴿إلى أمه﴾** إلى جماعة من الأوقات **﴿ما يحسبه﴾** ما يمنعه من النزول استجبالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء و **﴿يوم يأتيهم﴾** منصوب بخبر ليس ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها كان ذلك لئلا على جواز تقديم خبرها إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع العامل **﴿وحواق بهم﴾** وأحاط بهم **﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾** العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزؤون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الاستهزاء والمعنى: ويحقيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في إخباره.

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ رَزَعْنَاهَا مِنهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ

كُفْرًا. **﴿الإنسان﴾** للجنس **﴿رحمة﴾** نعمة من صحة وأمن وجدة **﴿ثم نزعناها منه﴾** ثم سلبناه تلك النعمة **﴿إنه ليؤس﴾** شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع **﴿كفور﴾** عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نساء له.

وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نَمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّهٖ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ **﴿١٠﴾** إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ **﴿١١﴾** فَلَمَّا تَأَنَّكَ بِبَعْضِ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كَزَٰرٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ **﴿١٢﴾**

﴿ذهب السيئات عني﴾ أي: المصائب التي ساءتني **﴿إنه لفرح﴾** أشر بطر **﴿فخور﴾** على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

﴿إلا النبيين﴾ آمنوا فإن عابدهم إن نالهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا. كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم **﴿لولا أنزل عليه كُتُبٌ كَزَٰرٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ﴾** وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيف صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه وهيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾** أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به **﴿وضائق به صدرك﴾** بأن تتلوه عليهم **﴿أن يقولوا﴾** مخافة أن يقولوا: **﴿لولا أنزل عليه كُتُبٌ كَزَٰرٍ﴾** أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكُتُبِ والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نفتخره ثم قال: **﴿إنما أنت نذير﴾** أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا **﴿والله على كل شيء وكيل﴾** يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفهم واستهزائهم.

فإن قُلْتُ: لم عدل من ضيق إلى ضائق؟ قُلْتُ: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجدو الثابتين المستقرين فإذا أردت الحدث قلت: سائد وجائد ونحوه: كانوا قومًا عامين في بعض القراءات، وقول

(1) ذكره ابن مردويه، والثعلبي ودواد بن المجر في كتاب العقل،

السهمري العكلي:

بمنزلة أما للثيم فسامن بها وكرام الناس بادشحبوها

أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا قُلُوبَنَا بِمَشْرِ سَوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِكِينَ وَأَدْعُوا
مَنْ أَسْطَقْتُمْ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِاللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْظَرُونَ ﴿١٤﴾

﴿أم﴾ منقطعة. والضمير في ﴿افتراه﴾ لما يوحى إليك. تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما اكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتضرت منك على سطر واحد، ﴿مثله﴾ بمعنى أمثاله، ذهباً إلى مماثلة كل واحدة منها له ﴿مفتريات﴾ صفة لعشر سور لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله، قاودهم على دعواهم، وأرخص معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوح إلي، وأن الأمر كما قلتم، فاتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام.

فإن قُلْتُ: كيف يكون ما يأتون به مثله، مفتري، وهذا غير مفتري؟ قُلْتُ: معناه: مثله في حسن البيان، والنظم، وإن كان مفتري.

فإن قُلْتُ: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فاعلموا﴾ بعد قوله قل؟ قُلْتُ: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون الجمع: لتعظيم رسول الله ﷺ كقوله:

فإن شئت حرمت النساء سواكم

وجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله، إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه ﴿فاعلموا﴾ إنما أنزل يعلم الله ﷻ أي: انزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وأخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ﴿و﴾ اعلموا عند ذلك ﴿أن﴾ لا إله إلا الله وحده، وأن توحيده واجب، والإشراك به ظلم عظيم ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً، وثبات قدم، على أنه منزل من عند الله، وعلى التوحيد، ومعنى فهل أنتم مسلمون: فهل

أنتم مخلصون.

مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴿١٥﴾

﴿نوف إليهم﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم واقية كاملة، من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقرءاء منهم: أردت أن يقال فلان قارىء، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصنق فعلت، حتى يقال فقيل، ولمن قاتل فقتل، قاتلت حتى يقال فلان جريء فقد قيل، وعن انس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً عجل لهم جزء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ، فأسهم لهم في الغنائم، وقرئ: يوف بالياء، على أن الفعل لله عز وجل، وتوف إليهم أعمالهم بالتاء على البناء للمفعول، وفي قراءة الحسن: توفي بالتخفيف وإثبات الياء؛ لأن الشرط وقع ماضياً، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وحيط ما صنعوا فيها﴾ وحيط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، وقرئ: وبطل على الفعل، وعن عاصم: وباطلاً، بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون، ومعناه: باطلاً أي باطل كانوا يعملون، وأن تكون بمعنى المصدر: على وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينِهِ مِنْ رَبِّهِ وَرَبُّهُ شَاهِدٌ بِنُورِهِ وَمَنْ قَبْلَهُ
كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ
الْأَخْرَابِ فَأَلْزَامٌ مَّوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿أمن كان على يمينه﴾ معناه: أمن كان يريد الدنيا، فمن كان على يمينه، أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً، وأراد بهم من أمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على يمينه ﴿من ربه﴾ أي: على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق وهو: دليل العقل ﴿ويتلووه﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شاهد منه﴾ أي: شاهد يشهد بصحته وهو: القرآن ﴿منه﴾ من الله أو شاهد من القرآن فقد تقدم ذكره

أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** وقرئ: **﴿يضعف﴾** **﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾** أراد⁽⁴⁾ أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع، ولعل بعض المجبرة يتوثب إذا عثر عليه فيوعود به على أهل العدل كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: وما كان لهم من أولياء أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من نون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: **﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾** فكيف يصلحون للولاية وقوله: **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** اعتراض بوعيد.

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٦﴾
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿خسروا أنفسهم﴾ اشتروا عبادة الألهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه وهو أنهم خسروا أنفسهم **﴿وضل عنهم﴾** وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو **﴿ما كانوا يفترون﴾** من الألهة وشفاعتها **﴿لا جرم﴾** فسر في مكان آخر **﴿هم الأخسرون﴾** لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْسَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْبِرِ وَالْكَافِرِ وَالصَّبِيرِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿واخبتوا إلى ربهم﴾ واطمانوا إليه وانقطعوا إلى عيباته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة ومنه قولهم للشئ الشيء الخبيث قال:

ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخبيث وقيل: التاء فيه بدل من التاء. شبه⁽⁵⁾ فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو

أنفاً **﴿ومن قبله﴾** ومن قبل القرآن **﴿كتاب موسى﴾** وهو: التوراة أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: كتاب موسى بالنصب، ومعناه: كان على بيته من ربه وهو: الدليل على أن القرآن حق ويتلوه ويقرا القرآن شاهد منه، شاهد ممن كان على بيته كقوله: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾**⁽¹⁾ **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**⁽²⁾ **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾**⁽³⁾ ويتلو من قبل القرآن التوراة **﴿إماماً﴾** كتاباً مؤتمراً به في الدين قودة فيه **﴿ورحمة﴾** ونعمة عظيمة على المنزل إليهم **﴿أولئك﴾** يعني: من كان على بيته **﴿يؤمنون به﴾** يؤمنون بالقرآن **﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾** يعني: أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ **﴿فالنار موعده فلا تك في مرية﴾** وقرئ: مرية بالضم وهما الشك **﴿منه﴾** من القرآن، أو من الموعود.

وَمَنْ أَتْلُو مِمَّنْ آتَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾.

﴿يعرضون على ربهم﴾ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم **﴿الأشهاد﴾** من الملائكة والنبيين بانهم الكذابين على الله بأنه اتخذ ولدًا وشريكًا ويقال **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** فواخزيه ووافضيحاته، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد كأصحاب أو أشراف.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُجْرِمِينَ فِي الْآخِرِينَ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضْمَنُهُمُ الْمَدَابِقَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد. وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به **﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾** أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا

= معتقده الباطل به، وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الأدب للكاتب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس، أو الحارث بن حلزة، وأما أدب القرآن، فيضيق عن أسهل من ذلك والله الموفق.

(5) قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف، وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين، ففيه نظر فإن امرأ القيس، شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن، تشبيهين وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه، أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولك في صفتين متعديتين والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(2) سورة الرعد، الآية: 43.

(3) سورة هود، الآية: 17.

(4) قال أحمد: أهل الحق، وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدره الخالق عز وجل، فلا ينفون استطاعة العبد نفسها، ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفى الاستطاعة جملة، هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة والحق مع الزمخشري في هذا الموضع، إلا في غفلته حيث يقول، فيوعود بها على أهل العدل، يعني: الآية المنكورة، وهذه سقطت عظيمة وهب أن المعبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراد الآية ووعود، وإنما تلا كتاب الله تعالى، غير أن خطأه في تصحيح =

من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم أو الذي جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في والأصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة كقوله:
الصباح فالغانم فالآيب

﴿هل يستويان﴾ يعني: الفريقين ﴿مثلاً﴾ تشبيهاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾.

أي: أرسلنا نوحاً باني لكم نذير ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ بالكسر فلما اتصل به الجارُ فتح كما فتح في كان والمعنى على الكسر وهو قولك: إن زيدا كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول ﴿أن لا تعبدوا﴾ بدل من إني لكم نذير أي: أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿إلا الله﴾ أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. وصف اليوم باليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

فإن قلنت: فإذا وصف به العذاب قلنت: مجازي مثله؛ لأن الأليم في الحقيقة هو: المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجد جده.

قَالَ يَتَوَارَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ إِنِ كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَائِعِهِمْ رِجْمَةً مِنْ عِندِ رَبِّهِمْ فَمَنْ يَسْتَعِينُ ﴿١٧﴾ فَأَنزَلْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهَا يَذُرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿أرأيتكم﴾ أخبروني ﴿إن كنتم على بينة﴾ على برهان ﴿من ربي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ بآيات البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوة.

فإن قلنت: فقولته: ﴿فعميت﴾ ظاهر على الوجه الأول فما وجهه على الوجه الثاني وحقه أن يقال فعميتاً؟ قلنت: الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة، ومعنى عميت خفيت، وقرئ: فعميت بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعمها عليكم.

فإن قلنت: فما حقيقته؟ قلنت: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدمكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلنت: فما معنى قراءة أبي؟ قلنت: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم جعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله ﴿أنزلنكموها وأنتم لها كارهون﴾ يعني: أنكرهكم على قبولها ونفسركم على الاهتداء بها وأنتم تكروهونها ولا تختارونها ولا إكراه في الدين، وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً، كقوله: أنزلنكم إياها، ونحوه: ﴿فسيكفكم الله﴾⁽³⁾ ويجوز فسيفكم إياهم،

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَبَّلَ إِلَّا بَشَرًا نَجَلْنَا وَمَا تَرَبَّلَ تَبَعَكَ إِلَّا أَلْبَيْتٌ مِمَّ أَرَادْنَا بَادِي الرُّأْيَىٰ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَقْضُكُم كَذِبٌ ﴿١٧﴾.

﴿الملاء﴾ الأشراف من قلوبهم: فلان مليء بكذا إذا كان مطيقاً له وقد ملأ بالامر؛ لأنهم ملأوا بكفايات الأمور واضطاعوا بها وبدببها، أو لأنهم يتملأون أي: يتظاهرون ويتسانون، أو لأنهم يملأون القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم ملأوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ما تراك إلا بشراً مثلنا﴾ تعريض⁽¹⁾ بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا: هب أنك واحد من الملاء ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قلوبهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً. والأرائل جمع الأرنل كقوله: ﴿أكابر مجرميها﴾⁽²⁾ أحاسنكم أخلاقاً. قرئ: بادي الرأي بالهمز وغير الهمز بمعنى اتبعوك أول الرأي، أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف

(1) قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي، ولكنه ترك الهمز استتقلاً، إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء، أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أرائل ليسوا قنوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه، ولا =

(2) سورة الأنعام، الآية: 123.

(3) سورة البقرة، الآية: 137.

والمعنى: إن صح وثبت باني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي: افتراضي وكان حقي حينئذ أن تقرضوا عني وتتألبوا علي ﴿وإنا بريء﴾ يعني: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه، ومعنى ﴿مما تجرمون﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم ومعادتكم.

وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحَ إِنَّهُ لَأَنْبَأُكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿لن يؤمن﴾ إقنط من إيمانهم وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع ﴿إلا من قد آمن﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن حزن بأس مستكين قال:

ما يقسم الله غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعم البال والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعادتكم، فقد حان وقت الانتقام لك منهم.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحَ إِنَّهُ لَأَنْبَأُكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿لن يؤمن﴾ إقنط من إيمانهم وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع ﴿إلا من قد آمن﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن حزن بأس مستكين قال:

ما يقسم الله غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعم البال والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعادتكم، فقد حان وقت الانتقام لك منهم.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

وَأَصْحَابُ الْفَلِكِ يُعْنِيْنَا رَوْحِيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعياناً تكلوه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحيننا﴾ وإنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوه عليهم بالإغراق، وقد وجب تلك وقضي به القضاء وجف قلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾⁽¹⁾.

سَوَّوْا كَعَابَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّا بَدَأَ بَيْنَهُم مِّنَ الْإِنسَانِ وَأَوَّحَىٰ إِلَيْنَا أَن نَّبْنِيَ لَهُمْ قُرُونًا مَّتَّعِيْنَ ﴿٣٨﴾.

﴿من يأتيه﴾ في محل النصب بـ «تعلمون» أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكك له عنه ﴿عذاب مقيم﴾ وهو عذاب الآخرة.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أُمَّرْتَنَا وَقَارَ الظُّنُورُ فَلَنَّا نَرِي فِيهَا مِنْ كُلِّ قَوْمٍ مَّتَّعَيْنَ الَّذِينَ وَهَلَكُوا إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَنْبِئُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يُخْرِجُهَا وَيُؤْتِيهَا لَهَا رُزُقًا وَيَرْزُقُهَا إِنْ رَزَقَهُ لَنَفْسٍ رَّحِيمٍ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ أُنْبِئْهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يُبَيِّنُ لَهُ مَا كَفَرَ وَأَنذَرَهُ وَأَنبَأَهُ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي لَكَ فَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿حتى﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾⁽²⁾ أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت حتى بـ «يصنع» فما تصنع بـ «ما»

بينهما من الكلام؟ قُلْتُ: هو حال من يصنع كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملا من قومه سخروا منه.

فإن قُلْتُ: فما جواب كلما؟ قُلْتُ: أنت بين أمرين إما أن تجعل سخروا جواباً وقال استثناءً على تقدير سؤال سائل، أو تجعل سخروا بدلاً من مرّ أو صفة لملاً وقال جواباً ﴿وأهلك﴾ عطف على اثنين وكذلك ﴿ومن آمن﴾ يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر لا لتقديره عليه وإرادته به تعالى الله عن ذلك.

قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته ﴿إلا قليل﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم»⁽¹⁾ وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وأولاد نوح: سام وحام وياث وبنوهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل بسم الله بـ «اركبوا» حالاً من الواو بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حنفاً منهنما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصايهما بما في بسم الله من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول. والكلامان: أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها.

يروي: أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقم الاسم⁽²⁾ كقوله: ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها أي: بقدرته وأمره وقرئ: مجراها ومرساها بفتح الميم من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين. وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله.

فإن قُلْتُ: ما معنى قولك جملة مقتضبة؟ قُلْتُ: معناه: أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بنكر اسم الله أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال كقوله:

وجاؤنا بهم سكر علينا
فلا تكون كلاماً برأسه ولكن فضلة من فضلات الكلام
الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك كأنه قيل:
اركبوا فيها مجراً ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير كقوله
تعالى: ﴿ادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾
لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

فإن قُلْتُ: بم اتصل قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾؟ قُلْتُ:
بمحنوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل: فركبوا
فيها يقولون بسم الله، وهي تجري بهم أي: تجري وهم فيها
﴿في موج كالجبال﴾ يريد موج الطوفان شبه كل موج
منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قُلْتُ: الموج ما يرتفع فوق الماء قد التقى وطبق ما
بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما
تسبح السمكة فما معنى جريها في الموج؟ قُلْتُ: كان ذلك
قبل التطبيق وقيل أن يغمر الطوفان الجبال إلا ترى إلى قول
ابنه: ﴿ساوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ قيل: كان اسم
ابنه كنعان وقيل: يام. وقرأ علي رضي الله عنه: ابنها
والضمير لامراته، وقرأ محمد بن علي، وعروة بن الزبير:
ابنه بفتح الهاء يريد أن ابنها فاكتمها بالفتحة عن الألف وبه
ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان
ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه ﴿إن ابني من أهلي﴾ وأنت
تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه،
فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب واستدل بقوله: ﴿من
أهلي﴾ ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان: أحدهما: أن
يكون ربيلاً له كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ، وأن يكون
لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم
السلام، وقرأ السدي: ونادى نوح ابناه على الندبة والترثي
أي: قال: يا ابتاه. والمعزل مفعول من عزله عنه إذا نجاه وأبعد
يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب
المؤمنين، وقيل: كان في معزل عن دين أبيه ﴿يا بني﴾
قرئ: بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء بالإضافة، وبالفتح
اقتصاراً عليه من الألف المبيلة من ياء الإضافة في قولك يا
بنيا، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء
بعدهما ساكنة ﴿إلا من رحم﴾⁽⁴⁾ إلا الراحم هو: الله تعالى،
أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي: إلا مكان
من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله:
﴿إن ربي لغفور رحيم﴾. وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً
من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل

== فالأولان استثناء من الجنس، والأخران من غير الجنس، وزاد
الزمخشري خامساً، وهو: لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من
الجنس بتأويل حنفاً المضاف تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان
مرحوم، والمراد بالنفي: التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالثبت
التعريض بعصمة السفينة، والكل جائز وبعضها أقرب من بعض،
والله أعلم.

(1) قال الزيلعي: غريب، ورواه الطبري في تفسيره موقوفاً على قتادة،
الزيلعي 2/146.

(2) قال أحمد: نفور من اعتقاد أنّ الاسم هو: المسمى، ولو اعتقد ذلك
لما جعله مقحماً، والله أعلم.

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

(4) قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا
معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم،

بفعل فاعل قاهر وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي، ولا أن يقضي تلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما نكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية، ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين وهما قوله: ﴿ابلعي﴾ و﴿اقلعي﴾ وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي: أنها مرت بالبيت فطافت به سبغاً وقد اعتقه الله من الغرق، وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

وَأَذَى نُوْحٍ رَبُّهُمُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ أَهْلِ وَإِنَّ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٥﴾.

نداؤه ربه دعائه له وهو قوله: رب مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: رب، فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء قلت: أريد بالنداء إرادة النداء ولو أريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ (5) قال رب بغير فاء ﴿إن ابني من أهلي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه وكان ربيباً له فهو بعض أهله ﴿وإن وعدك الحق﴾ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي: ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ (6) أي: أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في

ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني: السفينة، وقيل: لا عاصم بمعنى: لانا عصمة إلا من رحمه الله كقوله: ﴿ماء دافق﴾ (1) و﴿عيشة راضية﴾ (2) وقيل: ﴿إلا من رحم﴾ استثناء منقطع كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ (3) وقرئ: ﴿إلا من رحم﴾ على البناء للمفعول.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَكَمَّمَا آتَيْتِي وَصَصَّ الْمَاءَ وَفُجِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾.

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يا أرض﴾ و﴿يا سماء﴾ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ابلعي ماءك﴾ و﴿اقلعي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء (4) مميزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحت طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف بون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء. والبلغ عبارة عن: النشف. والإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى و«وغيض الماء» من غاضه إذا نقضه و«وقضي الأمر» وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه و«وأسوت» واستقرت السفينة «على الجودي» وهو جبل بالموصل و«وقيل بعداً» يقال: بعد بعداً وبعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا

(6) قال أحمد: ثم حث بعد الزمخشري ترفع عن أقصى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى، أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة، لاقتضاهم في الوصف، وأن يزداد عليهم، فترفعوا أن يشاركهم أحد في وصفهم ممن نونهم في المنصب، فعلوا عما يشاركون فيه إلى ما ليس كذلك، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة، أي: هو الذي يقضي بين القضاة، ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقصى القضاة، إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه، أو إقليه، وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أقصى قضاة الصحابة في زمانه، كما أطلقه عليه النبي ﷺ حيث قال: «أفضلكم علي»، فنحل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان، أو الإقليم وأعلمهم قاضي القضاة، وأقصى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده وكل قرن ناجم في زمن، فهو: شبيه زمن فيه بدأ هذا اللقب.

(1) سورة الطارق، الآية: 6.
(2) سورة الحاقة، الآية: 21.
(3) سورة النساء، الآية: 157.
(4) قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن نكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفرادها بها، السكوت عن نكر الأوصاف أحياناً اكتفاء بنكر الموصوف، لتبينه بها وتوحده فيها، وأنه متى نكر مكانها بنكره في مثل قوله: ﴿هو الله في السموات، وفي الأرض﴾ الآية، والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين، ومنه:

أنا أبو النجم، وشعري شعري
ولقد تحيل الشعراء على التعلق بانيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيب: يمدح عضد الدولة:

لا تحمديها واحمدي هماماً إذ لم يسم حامد سواك
يعني: لا تمدح نفسك، فإنك المنفرد بالمعادح، حتى إذا نكرت، ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك، لنفرك بها.

(5) سورة مريم، الآية: 3.

تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا نكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤالاً ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباً ووعظاً أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽³⁾: قد وعده أن ينجي أهله وما كان عنده أن ابنه ليس منهم شيئاً فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيمًا لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد فطلب إمطة الشبهة، وطلب إمطة الشبهة واجب فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟ **قُلْتُمْ**: إن الله عز وعلا قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه **﴿أَنْ أَسْأَلُكَ﴾** من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأديباً بأبوك واتعاطاً بموعظتك **﴿وَأَلَّا تَغْفِرَ لِي﴾** ما فرط مني من ذلك **﴿وَتَرْحَمَنِي﴾** بالتوبة علي **﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** أعمالاً.

قِيلَ يَنْجُ أَمِيطُ سَلْتِ وَيَا وَرَكَدْتَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّ مَرْيَمَ وَمَنْ سَتَيْتَهُمْ ثُمَّ يَنْبَهُرُ وَيَا عَذَابَ أَلِيمٍ⁽⁴⁾.

وقرى: يا نوح اهبط بضم الباء **﴿بِإِسْلَامٍ مِّنَّا﴾** مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرماً **﴿وَبِرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾** ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرى: وبركة على التوحيد **﴿وَعَلَى أُمِّ مَرْيَمَ مِمَّنْ مَعَكُمْ﴾** يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم: لأن الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لابتداء الغاية أي: على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: **﴿وَأُمِّم﴾** رفع بالابتداء **﴿وَسَنَمْتَعُم﴾** صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم ستمتعهم، وإنما حذف لأن قوله: ممن معك يدل عليه، والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك،

زمانك قد لقب أفضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة، كما قيل: دارع من الدرع وحائض وطالق على مذهب الخليل.

قَالَ يَنْجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ مَبْرُورٍ فَلَا تَنْتَهِنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ⁽⁵⁾ قَالَ رَبِّي إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁽⁶⁾.

﴿إنه عمل غير صالح﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيك في دينك ومعتقدك من الأبعاد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمّه كقولها:

فإنما هي إقبال وإدبار

وقيل: الضمير لنداء نوح أي إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذلك.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾: فهذا قيل: إنه عمل فاسد؟ **قُلْتُمْ**: لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصالحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك، كقوله: **﴿كأننا تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً⁽²⁾** وقرى: عمل غير صالح أي: عملاً غير صالح. وقرى: فلا تسئلن بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء يعني: فلا تلتمس مني ملتصاً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ **قُلْتُمْ**: قد

= مطلعاً على باطن أمره، بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة، ولم يعارضها يقين في كفر ابنه، حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بان يكون إبانة عنز أولى منه أن يكون عتياً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله عملاً استأثر به غيباً، وأما قوله: **﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾** فالمراد منه: النهي عن وقوع السؤال في المستقبل، بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين، والغرض من ذلك تقديم ما يقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها، أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهي عنه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: ولهذا المعنى، والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**، وإن كان مأموراً بالإنذار عن العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال، والفقر عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم، ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: **﴿إني لا أملك لكم من الله شيئاً﴾** أو قال ذلك لكل واحد منهم بخصوصه.

(2) سورة التحريم، الآية: 10.

(3) قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه، ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها، مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبتها إليه، فنقول لما وعد نوح أولاً تنجيه أهله، إلا من سبق عليه القول منهم، ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المنكور، ولا =

والإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات حرصاً عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مستحززين بها من العدو مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوة في المال، وقيل: القوة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجاجه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمئة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية، فقال: هلا سألته لِمَ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل. فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام: ﴿يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ وقول نوح عليه السلام: ﴿وَيَمِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾⁽²⁾ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عني وعمادكم إليه وأرغبكم فيه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم وأنثامكم.

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ما جئتنا ببينة﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾⁽³⁾ مع فوت آياته الحصر ﴿عن قولك﴾ حال من الضمير في تاركي آلهتنا كانه قيل: وما نترك آلهتنا صارين عن قولك: ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه إقناطاً له من الإجابة.

إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْثُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنَّيِئْتُهُدِ اللهُ وَأَنْهَدِرَا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِدُونِي بِيَمِينٍ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعَاصِمَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾

﴿اعتراك﴾ مفعول نقول وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا: ﴿اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: خيلك ومسك بحنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين، وليس يعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خيلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك، وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً والمنيب إلى ربه مخيلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادة، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبي إلا أن ينبض، وضب من الزندقة أراد

وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة، وعن محمد بن كعب القرظي: نخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راضين، ثم أخرج منهم نسلًا منهم من رحم، ومنهم من عذب. وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْمَوْتِمَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع عن الابتداء والجمل بعدها أخبار أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿من قبل هذا﴾ من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿فاصبر﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه ﴿إن العاقبة﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿للمتقين﴾. وقوله: ﴿ولا قومك﴾ معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه فكيف برجل منهم، كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

وَالَّذِي عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُغَيِّرُ أَعْيُنُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٦٢﴾ يُغَيِّرُ لَكُمْ أَسْمَاءَكُمْ كَمَا يُغَيِّرُ أَسْمَاءَ الَّذِينَ يَشَاءُ وَإِذَا نَزَلَ عَلَى الْعَرْسِ قَالَ أُنزِلُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ حَرًّا إِنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ عَلَى اللَّهِ بَصِيرَةٌ ﴿٦٣﴾

﴿لخاهم﴾ واحداً منهم وانتصابه للعطف على ﴿أرسلنا نوحاً﴾⁽¹⁾ و﴿هوداً﴾ عطف بيان و﴿غيره﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ: غيره بالجر صفة على اللفظ ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة والنصيحة لا يحصها ولا يحصها إلا حسم المطابع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع ﴿أفلا تعقلون﴾ إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو: ثواب الآخرة، ولا شيء انفى للتهمة من ذلك.

وَيُغَيِّرُ أَسْمَاءَكُمْ رَبِّكُمْ ثُمَّ نُوحِيَ إِلَيْهِ رُسُلِي أَسْمَاءَ عَلَيْكُمْ يَذَرَاكَ وَرَبِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قَوْمِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٦٤﴾

قيل: ﴿استغفروا ربكم﴾ آمنوا به. ﴿ثم توبوا إليه﴾ من عبادة غيره؛ لأنّ التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان. والمدراء: الكثير الدرور كالمغزار، وإنما قصد استمالتهم إلى

(3) سورة يونس، الآية: 20.

(1) سورة هود، الآية: 25.

(2) سورة نوح، الآية: 12.

للشرط؟ قُلْتُ: معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تقريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعبادة الرسول ﴿ويستخلف﴾ كلام مستأنف يريد ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في بياركم وأموالكم ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيثاً﴾ من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: ويستخلف بالجزم وكذلك ولا تضروه عطفًا على محل فقد أبلغتكم، والمعنى: إن تتولوا يعذرنى ويستخلف قومًا غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم ﴿على كل شيء حفيظ﴾ أي رقيب عليه مهيمن فما تخفي عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخنتكم، أو من كان رقيبًا على الأشياء كلها حافظًا لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار لم يضر مثله مثلكم.

وَلَمَّا جَاءَ أُمَّرًا نَجِيئًا هُوًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَهُ رَبَّنَا وَرَحِمْتُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾.

﴿والذين آمنوا معه﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

فإن قُلْتُ: ما معنى تكرير التنجية؟ قُلْتُ: نكر أولًا أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تنخل في أنوفهم وتخرج من أبارهم فتقطعهم عضواً، وقيل: أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغاظ منه وأشد. وقوله: ﴿برحمة منا﴾ يريد بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّ جَدُّوهُمُ يُبَايِعُ رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رَسُولَهُ وَاتَّبَعُوا أُمَّرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتِيَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَعْنَةُ رَبِّهِمُ الْيَوْمِ الْآخِرِ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدًّا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾.

﴿وتلك عاد﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (3) قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده ﴿كل جبار عنيد﴾ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل ومعنى: اتباع أمرهم طاعتهم ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللغة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله ﴿والآل﴾ وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم

أن يطلع رأسه، وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصح ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبه متناه حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقتهم بربه وأنه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبتهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ (1) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد فيقول الرجل: الله شهيد على أنني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أنني لا أفعله.

فإن قُلْتُ (2): هلا قيل إنني أشهد الله وأشهدكم؟ قُلْتُ: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهد على أنني لا أحبك تهكمًا به واستهانة بحاله ﴿مما تشركون من دونه﴾ من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركون من آلهة من دونه أي: أنتم تجعلونها شركاء له ولم يجعلها هو شركاء ولم ينزل بذلك سلطاناً.

﴿فكيدوني جميعاً﴾ أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون من غير إنظار فإنني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معرفتكم وإن تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرتني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصدت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي. ولما نكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته تحت قهره وسلطانه والأخذ بنواصيها تمثيل لذلك ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به.

إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْغَضْنَا مَا أَرْسَلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّطْنَا رَبِّي قَوْمًا عَنِيدًا وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فإن تتولوا.

فإن قُلْتُ: الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء

(1) سورة يونس، الآية: 71.

(2) قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهاد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر؛ لأنه إشهاد صحيح ثابت وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم، وقلة المبالاة به، وهو في مراده هذا المقام معهم، ويحتمل أن يكون إشهادهم =

= حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر، للتمييز بين خطاب الله تعالى، وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

(3) سورة البقرة، الآية: 285.

القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه **﴿يعبد آباؤنا﴾** حكاية حال ماضية **﴿مريب﴾** من أراه إذا أوقعه في الريبة وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي.

قَالَ يَغْوِرُ أَرَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَأَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١٣﴾.

قيل: **﴿إن كنت على بينة من ربي﴾** بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة؛ لأن خطاباً للجاحدين فكانه قال: قدروا أنني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعي من عذاب الله **﴿فما تزيدونني﴾** إن حينئذ **﴿غير تخسير﴾** يعني: تخسرون أعمالتي وتبطلونها، أو فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملونني عليه غير أن أخسركم أي: اتسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم خاسرون.

وَيَغْوِرُ هَذِهِ. نَأْفَهُ اللَّهُ لَكُمْ مَائَةً ذَرَّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَاخْذُوا عَذَابَ قُرَيْبٍ ﴿١٤﴾.

﴿آية﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

﴿إن قلت: فبم يتعلق ﴿لكم﴾؟ قلت: بآياته حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿عذاب قريب﴾ عاجل لا يستأخر عن مسك لها بسوء إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم.

مَعْرُوهَا فَتَأْكُلُ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ لَنَدَّ آيَاتٍ ذَلِكُمْ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ﴿١٥﴾.

﴿تمتعوا﴾ استمتعوا بالعيش **﴿في داركم﴾** في بلكم وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها أي: يتصرف يقال: يدار بكر لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار يريدون من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلوكوا يوم السبت **﴿غير مكذوب﴾** غير مكذوب فيه، فأتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به كقولك: يوم مشهود من قوله: ويوم شهدناه، أو على المجاز كأنه قيل للوعد: نفي بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أن المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول وكالمصدوقة بمعنى الصنق.

فَلَمَّا جَاءَ أَهْرَابُهُمْ صَالِحًا وَالزُّبُرُ مَأْمُومًا مَعَهُ رَحِمَهُ مِنْكَ

تهويل لأمرهم وتفضيح له ويعث على الاعتبار بهم والحدز من مثل حالهم.

﴿فإن قلت: ﴿يعبد﴾ دعاء بالهلاك فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قلت: معناه: الدلالة على أنهم كانوا متساهلين له ألا ترى إلى قوله:

إخوتي لا تبعنوا أبداً وبلى والله تدبعنوا
﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد.

﴿فإن قلت:﴾ ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بونه؟ **﴿قلت:﴾** الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأن عاداً عادات الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى إرم.

وَإِلَىٰ نُؤُدٍ أَحَاظِمٍ مَّسْلِحًا قَالَ يَغْوِرُ أَتَيْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ هُوَ أَنْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْتُمْ فِيهَا فَاسْتَفْتَوْهُ ثُمَّ نُؤُودٌ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١٦﴾.

﴿هو انشاكم من الأرض﴾ لم ينشاكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشأهم منها خلق آدم من التراب **﴿واستعمركم فيها﴾** وأمركم بالعمارة والعمارة متنوثة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمال الطوال مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تدميرهم، فأوحى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان: أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له فقال: لا حملني عليه إلا قول القائل:

ليس النقى بفتنى لا يستضاء به ولا تكون له في الأرض أنار

وقيل: استعمركم من العمر، نحو استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى وفيه وجهان: أن يكون استعمر في معنى أعمار كقولك: استهلكه في معنى أهلكه، ومعناه: أعماركم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم، والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمريين دياركم فيها؛ لأن الرجل إذا ورث داره من بعده فكانما أعمارته إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره **﴿قريب﴾** داني الرحمة سهل المطلب **﴿مجيب﴾** لمن دعاه وسأله.

قَالُوا يَصَلِحُ فَذَكَرْتُ فِيمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُنَّ أَنْ تَعُدَّ مَا يَعُدُّ مَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَنِي سَكِّ مَنَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٧﴾.

﴿فيينا﴾ فيما بيننا **﴿مرجوا﴾** كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشده فكنا نرجو لننتفع بك وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير، فلما نظقت بهذا

(1) قال أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى: تناسب الآي بذلك، فإن =

= قبلها واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وقبل ذلك حفيظ، وغلبيظ، وغير ذلك مما هو على وزن فاعيل المناسب، لفعول في القوافي، والله أعلم.

لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٧﴾.

يقال: نكره وأنكره واستنكره ومنكوره قليل في كلامهم، وكذلك أنا أنكرك ولكن منكر ومستنكر وأنكرك، قال الأعشى:

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحواث إلا الشيب والصلما

قيل⁽³⁾: كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروهماً، وقيل: كانت عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعاهم آمنوه وإلا خافوه، والظاهر أنه أحسن بانهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه. إلا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا ﴿فأوجس﴾⁽⁴⁾ فاضمر. وإنما قالوا لا تخف؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بانهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعداء.

وَأَرْبَابُهُ فَأَيَّمَهُ فُضِحَّتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٨﴾.

﴿وامراته قائمة﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم. وفي مصحف عبد الله: وامراته قائمة وهو قاعد ﴿فضحكت﴾⁽⁵⁾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث، أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلمهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوط ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: فضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زيد الأعرابي: فضحكت بفتح الحاء ﴿يعقوب﴾ رفع بالابتداء كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود أي: من بعده، وقيل: الوراثة ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهدأ ابنك؟ فقال: نعم من الوراثة وكان ولد ولده، وقرئ: يعقوب بالنصب كأنه قيل: ووهبنا لها إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب على طريقة قوله:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

وَمِنْ خَزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْمَعِزُّ ﴿٧٩﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي رِبْعِهِمْ جَبِينًا ﴿٨٠﴾ كَأَن لَّمْ يَمَسَّوْا فِيهَا إِلَّا أَنْ كُفِّرُوا زُرَّتْهُمُ الْأَبْدَانُ كَمَا كُفِّرُوا زُرَّتْهُمُ ﴿٨١﴾.

﴿ومن خزي يومئذ﴾ قرئ: مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ وهو غير متمكن كقوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

فإن قلت: علام عطف؟ قلت: على نجينا؛ لأن تقديره ونجيناهم من خزي يومئذ كما قال: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾⁽¹⁾ على وكانت النتيجة من خزي يومئذ أي: من نذله ومهانتة وفضيحتة ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة. وقرئ: إلا إن ثمود ولثمود كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلِّمُوا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ ﴿٨٢﴾.

﴿رسلنا﴾ يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر ﴿بالبشيري﴾ هي: البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد ﴿سلاماً﴾ سلمنا عليك سلاماً ﴿سلام﴾ أمرمك سلام، وقرئ: فقالوا سلاماً قال سلم بمعنى: السلام، وقيل: سلم وسلام كحرم وحرم وأشد:

مررنا فلقلنا إيه سلم فسلمت كما اكتل بالبرق الغمام اللوائح

﴿فما لبث أن جاء﴾ فما لبث في المجيء به بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام البقر ﴿حنيناً﴾ مشوي بالرضف في أخذود، وقيل: حنين يقطر دسمة من حنئت الفرس إذا القيت عليه الجل حتى تقطر عرقاً ويدل عليه ﴿بعجل سمين﴾⁽²⁾.

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا

(1) سورة هود، الآية: 58.

(2) سورة الذاريات، الآية: 26.

(3) قال أحمد: وقد وردت في قصة إبراهيم هذه ثلاثة مواضع، هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة، وعدم علمه جاءوا الثاني في الحجر قوله: ونبيهم عن ضيف إبراهيم إلى قوله لا توجل إنا نبشرك، فلم يطمئنا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بانهم مبشرون له، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاءوا فيه الثالث في الذاريات، ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف، وبشروه﴾، فهو أيضاً كذلك، وأما لوط، فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك، إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا نرسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية، وبين أي إبراهيم =

= مصداق؛ لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يعد على فراسته، أن يعلم أنهم ملائكة نون لوط عليهما السلام.

(4) قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري، والله أعلم؛ لأنهم إنما علموا خوفه ووجهه بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى قال: ﴿إنا منكم وجلون قالوا لا توجل﴾ والقصة واحدة، والله الموفق للصواب.

(5) قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد: ﴿يا ويلنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ فلو كان حيضها قبل بشارتها، لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من حيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل، والله الموفق.

ومجالته إياهم أنهم قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال: أرايتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين اتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ العشرة، قالوا: لا. قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم اتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها⁽²⁾ لننجينه وأهله، ﴿في قوم لوط﴾ في معناهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان⁽³⁾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥).

﴿إن إبراهيم حلِيم﴾ غير عجول على كل من أساء إليه ﴿أواه﴾ كثير التأوه من الذنوب ﴿منيب﴾ تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرفقة والرحمة، فبين أن ذلك مما حملة على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حملة على الاستغفار لآبيه.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّكَ قَدِ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَبْئُتٍ مِّنْ عَذَابِ غَيْرِكَ سُرَّطُونٌ﴾ (٧٦).

﴿يا إبراهيم﴾ على إرادة القول أي: قالت له الملائكة: ﴿اعرض عن هذا﴾ الجدل وإن كانت الرحمة دينك فلا فائدة فيه ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة والعذاب نازل بالقوم لا محالة لا مرد له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لَّوْطًا بَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ إِذْ قَالَ لَؤُوتُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنِّي أَخافُ أَنَّكَ أَبْحَثُ بِحَدِيثِ رَبِّكَ فَتَكْفُرَ بِالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ﴾ (٧٧).

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم خبت قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، وروي أن الله تعالى قال لهم: لا تهلکوم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشراً قرية في الأرض عملاً. يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امراته، فاخبرت بهم قومها. يقال يوم عصيب وعصوصب: إذا كان شديداً من قولك: عصبه إذا شدّه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَجُونَ وَإِلَيْهِ مِنَ الْقَوْمِ كَاثُرٌ يَّمْلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَعُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِكُنَّ مِنْ أَطْفَالِكُنَّ فَأْتَمَرُوا أَنَّهُ وَلَا تَحْزَنِينَ فِي صَبِيحَتِكُنَّ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (٧٨) قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حقّ

قَالَتْ يَنْفَعُكَ إِذْ وَأَنَا عَجْرٌ وَمَهْدًا بَعْلِي سَيِّئًا إِنَّ هَذَا لَكُنْ عَجِبٌ (٧٦) قَالُوا أَمْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٧).

الألف في ﴿يا ولتاً﴾ مبدلة من ياء الإضافة وكذلك في يا لهفا ويا عجا، وقرأ الحسن: يا ولتني بالياء على الأصل و﴿شيخاً﴾ نصب بما دل عليه اسم الإشارة، وقرئ: شيخ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خير، أو يكونان معاً خبرين. قيل: ولها ثمان وتسعون سنة وإبراهيم مائة وعشرون سنة ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله، وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ﴿فقالوا اتعجبين من أمر الله﴾ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة، فكان عليها أن تتوفر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أراؤا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجب. وأمر الله قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رحمت الله وبركاته عليكم﴾ كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إياك والتعجب، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم ﴿حميد﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده ﴿مجيد﴾ كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت نصب على النداء، أو على الاختصاص؛ لأن أهل البيت مدح لهم، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن.

﴿لَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ الْبَشَرُ مَجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٨).

﴿الروع﴾ ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملى سروراً بسبب البشرى بدل الغم فرغ للمجالاة.

﴿فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف كما حذف في قوله: ﴿فلما ذهبوا به واجمعوا﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿يجادلنا﴾ كلام مستأنف دال على الجواب وتقديره اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت، ثم ابتداء فقال: يجادلنا في قوم لوط، قيل في يجادلنا: هو جواب لما وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن لما ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل معناه: أخذ يجادلنا وأقبل يجادلنا والمعنى: يجادل رسلنا،

(3) رواه الطبراني في معجمه والبيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في

دلائل النبوة، (الزليعي 146/2 - 147).

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 32.

وجه الخلاعة والغرض نفي الشهوة ﴿لتعلم ما نريد﴾
عنا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

وَرَبَّكَ لَمَّا تَرَى مَا تُرِيدُ (٧٦).

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيَةٌ إِلَىٰ رُكْنِي سَدِيدٍ (٨١) قَالُوا يَلُوطُ
إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ نَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَنْشِرْ آلَهُمْ جَمِيعًا وَيُطِيعِ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
وَيُصَلِّمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْرَهُ مُصِيبًا مَا أَسَاءْتُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ
أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَمَلْنَا عَلَيْهَا صَالِحًا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مُّسْوَرٍ (٨٣) مُّسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٤).

جواب لو محذوف كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآننا سيرت
به الجبال﴾⁽²⁾ يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت،
يقال: ما لي به قوة، وما لي به طاقة ونحوه: لا قبل لهم
بها، وما لي به يدان، لأنه في معنى لا اضطلع به ولا
استفل به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى
قوتي أستند إليه واتمعت به فيحمني منكم، فشبّه القوي
العزیز بالركن من الجبل في شدته ومنعته، ولذلك قالت
الملائكة وقد وجدت عليه: إن ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ:
«رحم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد»⁽³⁾. وقرئ:
أو أوي بالنصب بإضمار أن، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة
أو أويًا كقولها:

لبس عباءة وتفر عيني

وقرئ: إلى ركن بضمين، وروي: أنه أغلق بابه حين
جاؤوا وجعل برأهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوروا
الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يا
لوط إن ركنك لشديد ﴿إننا نرسل ربك لن يصلوا إليك﴾
فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن
جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأنزله، فقام في
الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه
وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا، فضرب بجناحه
وجوهم، فطمس أعينهم فاعماهم كما قال الله تعالى:
﴿فطمسنا أعينهم﴾⁽⁴⁾ فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا
وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قومًا سحرة.
﴿لن يصلوا إليك﴾: جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا
كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره.
قرئ: فاسر بالقطع والوصل ولا أمراك بالرفع والنصب،
وروي: أنه قال لهم: متى وعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح. فقال:
أريد أسرع من ذلك، فقالوا ﴿أليس الصبح بقریب﴾
وقرئ: الصبح بضمين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ إلا امراتك: بالنصب؟

﴿يهرعون﴾ يسرعون كأنما يدفعون دفعا ﴿ومن قبل
كانوا يعملون السيئات﴾ ومن قبل تلك الوقت كانوا
يعملون الفواحش ويكثرونها فاضروا بها ومرنوا عليها وقل
عندهم استقباحها، فلذلك جازا يهرعون مجاهرين لا
يكفهم حياء، وقيل معناه: وقد عرف لوط عانتهم في عمل
الفواحش قبل ذلك ﴿هؤلاء بناتي﴾ أراد أن يقي أضيافه
ببناته وذلك غاية الكرم، وأراد هؤلاء بناتي: فتزوجهن،
وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزًا، كما زوج
رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص
ابن ائيل قبل الوحي وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان
مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه. وقرأ ابن مروان: هن
أظهر لكم بالنصب، وضعفه سيوييه وقال: احتبى ابن
مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: هن
أظهر بالنصب فقد تربح في لحنه وذلك أن انتصابه على
أن يجعل حالًا قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى
الفعل كقوله: ﴿هذا بعلي شيخًا﴾⁽¹⁾ أو ينصب هؤلاء
بفعل مضمر كأنه قيل: خذوا هؤلاء وبناتي بدل ويعمل
هذا المضمر في الحال وهن فصل وهذا لا يجوز؛ لأن
الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة ولا يقع بين
الحال وذي الحال، وقد خرج له وجه لا يكون هن فيه
فصلًا وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ وبناتي هن جملة في
موضع خبر المبتدأ كقولك: هذا أخي هو، ويكون أظهر
حالًا ﴿فاتقوا الله﴾ بإيثارهن عليهم ﴿ولا تخزوني﴾ ولا
تهينوني ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من
الخزاية وهي: الحياء ﴿في ضيوفي﴾ في حق ضيوفي فإنه
إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك
من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿أليس منكم رجل
رشيد﴾ رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل
والكف عن سوء. وقرئ: ولا تخزون بطرح الياء، ويجوز
أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم
وأظهارًا لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعًا في أن
يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا له
ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عندهم وعندهم أن
لا مناكحة بينه وبينهم ومن ثم ﴿قالوا لقد علمت﴾
مستشهدين بعلمه ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ لأنك لا
ترى مناكحتنا وما هو إلا عرض سابري، وقيل: لما
اتخذوا إتيان الذكران مذهبًا ودينًا لنواطؤهم عليه كان
عندهم أنه هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك
قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأن نكاح الإناث أمر
خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على

(1) سورة هود، الآية: 72.

(2) سورة الرعد، الآية: 31.

(3) رواه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله ﴿ولو طأ إذ قال لقومه...﴾

(الحديث رقم: 3375) ومسلم كتاب: الغضائل، باب: من فضائل =

= إبراهيم الخليل ﷺ (الحديث رقم: 6094).

(4) سورة القمر، الآية: 37.

التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْم لِمَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (4) ﴿يَوْمَ مُحِيطٌ﴾ مهلك من قوله: ﴿وَاحِيطٌ بِثَمَرِهِ﴾ (5) وأصله من إحاطة العدو.

فَإِنْ قُلْتُمْ: وصف العذاب بالإحاطة ابلغ أم وصف اليوم بها؟ قُلْتُمْ: بل وصف اليوم بها؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ زَمَانٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْحَوَادِثِ، فَإِذَا أَحَاطَ بِعَذَابِهِ فَقَدْ اجْتَمَعَ لِلْمَعْتَبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْهُ كَمَا إِذَا أَحَاطَ بِنَعِيمِهِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ (6): النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: ﴿أَوْفُوا؟﴾ قُلْتُمْ: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لِأَنَّ فِي التَّصْرِيحِ بِالْقَبِيحِ نَعْيًا عَلَى الْمُنْهَى وَتَعْبِيرًا لَهُ، ثُمَّ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالْإِيفَاءِ الَّذِي هُوَ حَسَنٌ فِي الْعُقُولِ مَصْرَحًا بِلَفْظِهِ لَزِيَادَةِ تَرْغِيبٍ فِيهِ وَبِعِثٍ عَلَيْهِ وَجِيءَ بِهِ مَقِيدًا بِالْقِسْطِ أَي: لِيَكُنَ الْإِيفَاءُ عَلَى وَجْهِ الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ أَمْرًا بِمَا هُوَ الْوَاجِبُ؛ لِأَنَّ مَا جَاوَزَ الْعَدْلَ فَضْلٌ وَأَمْرٌ مَنُودِبٌ إِلَيْهِ، وَفِيهِ تَوْقِيفٌ عَلَى أَنَّ الْمَوْفِيَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْوِي بِالْوَفَاءِ الْقِسْطَ؛ لِأَنَّ الْإِيفَاءَ وَجْهٌ حَسَنٌ أَنَّهُ قِسْطٌ وَعَدْلٌ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ. الْبُخْسُ: الْهُضْمُ وَالتَّقْصُ وَيُقَالُ لِلْمَكْسِ: الْبُخْسُ. قَالَ زَهْرِي:

وفي كل ما باع امرؤ بخس درهم

وروي مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض.

يَبَيِّنُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨١).

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ (7) ما بقي لكم من الجلال بعد التنزه عما هو حرامٌ عليكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا، وإنما حوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان.

فَإِنْ قُلْتُمْ (8): بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف فلم شرط الإيمان؟ قُلْتُمْ: لظهور

قُلْتُمْ: استثناها من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ واللليل عليه قراءة عبد الله فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت على أصل الاستثناء. وإن كان الفصح هو البذل أعني: قراءة من قرأ: بالرفع فأبديها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي: أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: يا قوماء: فاركها حجر فقتلها. وروي: أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ جعل جبريل جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الببكية، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم ﴿مَنْ سَجِيلٌ﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنككل بلليل قوله: ﴿حَجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾ (1) وقيل: هي من أسجله إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين ويدل عليه قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَجَارَةً﴾ (2) وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل وسجل لفلان ﴿مَغْسُودٌ﴾ نضد في السماء نضداً معداً للعذاب وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً ﴿مَسُومَةٌ﴾ معلمة للعذاب، وعن الحسن رضي الله عنه: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿وَمَا هِيَ﴾ من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة» (3) وقيل: الضمير للقرى أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمررون بها في مسائرهم ﴿بِبَعِيدٍ﴾ بشيء بعيد، ويجوز أن يراد وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالرمي فكانها بمكان قريب منه.

﴿وَإِلَّا مَدِينٌ مَّا نَحْنُ شَعْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْيَكَالَ وَالْيَبْرَانَ إِنْ أَرْنَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَنَا قُدْرٌ عَلَيْكُمْ عَذَابٍ يَوْمَ يُحْطَبُ (٨٢) وَيَنْفَوْرُ أَوْفُوا الْيَكَالَ وَالْيَبْرَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُتْسِدِينَ (٨٣).﴾

﴿إِنِّي أراكم بخير﴾ يريد بثروة وسعة تغنيكم عن

= مأخوذ من قوله ومتروك، إلا المعصوم، وأما قوله: أَنَّ الْإِيفَاءَ حَسَنٌ فِي الْعُقُولِ، فتفريع على قاعدة التحسين والتقييح، وقد سبق بطلانها، وبيننا أَنَّ التحسين والتقييح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

(7) قال أحمد: المنقول عن المعتزلة، أَنَّ الْكُفَّارَ غَيْرَ مُخَاطَبِينَ بِغُرُوحِ الشَّرِيعَةِ، لَا نَهْيًا، وَلَا أَمْرًا، وَقَدْ جُوزَ بَعْضُهُمْ خُطَابَهُمْ بِالنَّهْيِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مُخَاطَبُونَ فِي حَالِ الْكُفْرِ، بِشَرَطِ الْإِيمَانِ، وَقَدْ قَرَّرَهَا الزَّمْخَشَرِيُّ عَلَى ذَلِكَ.

(8) قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، =

(1) سورة الذاريات، الآية: 33.

(2) سورة الذاريات، الآية: 33.

(3) قال: الزيلعي: غريب، وأخرجه الثعلبي من غير سند 148/2.

(4) سورة غافر، الآية: 29.

(5) سورة الكهف، الآية: 42.

(6) قال أحمد: ولمن قال: إن الأمر بالشئ ليس نهياً عن ضده، أن يستدل بهذه الآية؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ عَيْنَ النَّهْيِ. عن الضد، لكان وروده عقبه تكراراً، وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أَنَّ النَّهْيَ فِي الْآيَةِ قَبْلَ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ، وَكُلُّ

بفعل غيره. وقرئ: أصلتك بالتوحيد. وقرأ ابن أبي عبله: أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء بقاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم والدنانير وتقطيعها، وأرادوا بقولهم: ﴿إنك لانت الحلیم الرشید﴾ نسبته إلى غاية السفه والغبي ففكسوا ليتكفموا به كما يتكفم بالشحيح الذي لا يبض حجره فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

قَالَ يَغْوِرُ أَرَبَيْشَرُ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتَيْ رَيْقٍ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَا مَا أَهْلَكَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٧﴾.

﴿ورزقني منه﴾ أي من لئنه ﴿رزقًا حسنًا﴾ وهو ما رزقه من النبوة والحكمة وقيل: رزقًا حسنًا حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف.

فإن قُلْتَ: أين جواب أرايتم؟ وما له لم يثبت كما اثبت في قصة نوح ولوط؟ قُلْتَ: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأن إثباته في القصتين دل على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لي أن لا أمرك بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك. يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولي عنه وأنت قاصده، ويلقاه الرجل صانداً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه وأراداً وأنا ناهب عنه صانداً، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لا أستبد بها دونكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد إلا أن أصلحك بموعظتي ونصيحتي وأمرني بالمعروف ونهيني عن المنكر ﴿وما استطعت﴾⁽⁵⁾ ظرف أي: مدة استطاعتي

فأثبتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقدته لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان وتنبية على جلالة شأنه، ويجوز أن يراد إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إليكم⁽¹⁾، ويجوز أن يراد ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير لكم كقوله: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك﴾⁽²⁾ وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأما الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله وقرئ: تقية الله بالتاء، وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

قَالُوا يَسْعَيْبُ أَمْ لَوْلَاكَ تَأْتِيكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَمُرُّ مَا بَأْسًا أَوْ أَنْ نَعَلَ فِي أَمْرَانَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾.

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه إذا راوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا فقصده بقولهم ﴿أصلواتك تأمرك﴾ السخرية والهزء، والصلاة وإن جاز أن تكون أمرة على طريق المجاز كما كانت ناهية في قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾⁽³⁾ وأن يقال: إن الصلاة تأمر بالجميل والمعروف كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه، إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز وجعلوا الصلاة أمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتوكل به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال⁽⁴⁾. ومعنى تأمرك ﴿أن تترك﴾ تأمرك بتكليف أن تترك ﴿ما يعبد أبائنا﴾ فحذف المضاف الذي هو التكليف لأن الإنسان لا يؤمر

(3) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(4) قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون: أن نفعل، معطوفاً على أن تترك، وعلى المشهور لا يجوز ذلك، والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتعين العطف فيها على ما يعبد، كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن تترك عبادة آبائنا، أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن نفعل، أي: أو أن نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنبه لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره تأمرك بتكليف أن تترك، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إناءً، والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله، فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المنكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(5) قال أحمد: والظاهر أنه ظرف، كهو في قوله: فاتقوا الله ما استطعتم، وأما جعله مفعولاً للمصدر، وقد عرف بالالف واللام =

= ومعنى السؤال: أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك، فلا معنى لاشتراط الإيمان، والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتنال سواء. ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتنال، إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر، فهم مخلدون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مامن العذاب، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وقد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم﴾ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً أو حقيقة، وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد، راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(2) سورة الكهف، الآية: 46.

وَأَسْتَفِيرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُؤْتُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٤٥﴾ قَالُوا
يَنْتَعِبُ مَا نَقَعَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَقْتُولُ أَيِّ ظَهْرٍ أَرْهَىٰ
عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَعْتَدْتُمُوهُ إِذْ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَاللَّهُ يَمُنَّ بِمَا نَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

﴿رحيم ودود﴾ عظيم الرحمة للتائبين فاعل بهم ما يفعل البليغ، والمودة بمن يوده من الإحسان والإجمال ﴿وما نقعه﴾ ما نفقه، ما نفهم ﴿كثيراً مما نقول﴾ لأنهم كانوا لا يلقون إليه آذنانهم رغبة عنه وكراهية له كقوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾⁽¹⁾ أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه فكانهم لم يفقهوه، أو قالوا ذلك على وجه الاستهانة به كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعياً بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا ينفهم كثير منه، وكيف لا ينفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان اللغ⁽²⁾ ﴿فينا ضعيفاً﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أرينا بك مكروفاً، وعن الحسن: ضعيفاً مهيناً، وقيل: ضعيفاً أعمى، وحمير تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد لأن فينا ياباه ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطاً، والرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة، وإنما قالوا: ولولاهم احتراماً لهم واعتدالاً بهم لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم ﴿لرجمناك﴾ لقتلناك شر قتلة ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي: لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعه عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دل إيلاء ضميره حرف التنفي أن الكلام واقع في الفعل لا في الفعل؛ كانه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾ ولو قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب.

فإن قُلْتُ: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾؟ قُلْتُ: تهاونهم به وهو نبي الله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾⁽³⁾ ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبا به، والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسي

للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا ألو فيه جهداً، أو بدل من الإصلاح أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو مفعول له كقوله:

ضعيف النكاية أعداءه

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما أتى وأتزر ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفى ربه في إضفاء الأمر على سنته وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

وَنَعْتَرُ لَا يَجْرِمُكُمْ يُفَاقَهُ أَنْ يُصِيبَكُمْ يَتْلُ مَا أَمَّابَ قَوْمٌ نُوْجَ أَرْ قَوْمٌ هُوْرٌ أَرْ قَوْمٌ صَلِيحٌ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٌ مِصْكٌ يَبْعِيْرُ ﴿٤٨﴾

جرم مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه، قال:

جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا

ومنه قوله تعالى: ﴿لا يجرمكم شقاقي أن يصيبكم﴾ أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير: بضم الياء من أجرمته ذنباً إذا جعلته جارماً له أي: كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد كما نقل: أكسبه المال من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبته مالاً وأكسبته إياه، فكل ذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظاً كما إن كسبته مالاً أفصح من أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدورهم له أكثر استعمالاً. وقرأ أبو حيوة: ورويت عن نافع: مثل ما أصاب بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يعني: أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك.

فإن قُلْتُ: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حملة على لفظه أو معناه؟ قُلْتُ: إما أن يراد وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان، أو مكان بعيد ويجوز أن يسوى في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المنكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والبهيق ونحوهما.

== فبعيداً؛ لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذلك، قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح، ولا في غيره، إلا في قوله: لا يجب الله الجهر بالسوء، فاعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوهه، وهي ممكنة عديدة متعين، خصوصاً في أفصح الكلام، والله أعلم.

(1) سورة الانعام، الآية: 25.

(2) قال احمد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحدافة في علم البيان، والله المستعان.

(3) سورة النساء، الآية: 80.

﴿بما تعملون محيط﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها.

وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَا كُنْتُمْ لِي عِندَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَنْتُمْ بِنُورِي أَنِي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٤٣﴾
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرًا غَيَّبْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي رَيْبِهِمْ جَزِيئَةً ﴿٤٤﴾ كَانَ لَرَّ يَفْعَلُوا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لَمَلٍ إِنَّكَ كَمَا بَدَدْتَ نَمُودَ ﴿٤٥﴾.

﴿على مكانتكم﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدرًا من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قارين على جهنم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها ﴿إني عامل﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿من ياتيه﴾ يجوز أن تكون من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل سوف تعلمون أين ياتيه عذاب يخزيه، وأين هو كاذب، وأن تكون موصولة قد عمل فيها كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي ياتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزاعها في ﴿سوف تعلمون﴾؟ قلت: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزاعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا: فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاة العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إني معكم رقيب﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب من رقبه، كالضرب والصريم بمعنى: الضارب والمصارم، أو بمعنى: المراقب كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمترفع.

فإن قلت⁽¹⁾: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس

أن يقول من ياتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق حتى ينصرف من ياتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟ قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعون كاذبًا قال: من هو كاذب يعني: في زعمكم ودعواكم تجهيلًا لهم.

فإن قلت: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءت بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ونلك قوله: ﴿إن موعدهم الصبح﴾⁽²⁾ ﴿نلك وعد غير مكثوب﴾⁽³⁾ فجيء بالفاء الذي هو للتسبب كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخيرين: فلم تقعتا بتلك المثابة وإنما وقعتا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطفوا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة. الجائز: اللازم لمكانة لا يريم كاللايد يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا ﴿كان لم يغنوا﴾ كان لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين. البعد بمعنى: البعد وهو: الهلاك كالرشد بمعنى: الرشد ألا ترى إلى قوله: ﴿كما بعدت﴾ وقرأ السلمي: بعدت بضم العين والمعنى: في البناءين واحد وهو نقيض العرب، إلا أنهم أرادوا التفصيلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد، وقرأة السلمي: جاءت على الأصل اعتبارًا لمعنى البعد من غير تخصيص كما يقال: ذهب فلان ومضى في معنى الموت، وقيل: معناه بعدًا لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحِيَّ بِرَأْيِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِنْ يَنْزِعُونَ وَمَلْأَيْهِمْ قَلْبًا أَمْرٌ وَعَرُونَ وَمَا أَمْرٌ عُزُونَ بِرَشِيدٍ ﴿٤٧﴾ يَدْعُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسْ أَلْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴿٤٨﴾ وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ لَمُنَّ وَوَمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ بِسِ الْوَرْدِ الْمُرُودِ ﴿٤٩﴾.

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته، وأن يراد: بالسلطان المبين العصا لأنها أبهرها ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره

= منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ إلا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ فنكر هناك أيضًا إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة: عاقبة الخير، ومتى أطلقت فلا يعني إلا نلك، كقوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ واستغنى عن نكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمل هذا الفصل، فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

(2) سورة هود، الآية: 81.

(3) سورة هود، الآية: 65.

(1) قال أحمد: والظاهر والله أعلم أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله: ﴿من ياتيه عذاب يخزيه﴾ مضمن نكر جرمهم الذي يجازون به، وهو: الكذب، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة، والموصوف واحد، كما تقول لمن تهده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم، لم يخل نلك من دلالة على نكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً، فالآخر هو المحق قطعاً، فنكره لإحدى العاقبتين صريحاً، يفهم نكر الأخرى تعريضاً، والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما، وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر استغناء عنها بنكر عاقبتهم، كما بيانه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قال إن تسخروا منا فإننا نسخر =

فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله **﴿يُدْعُونَ﴾** يعبدون، وهي حكاية حال ماضية و **﴿لِئَامًا﴾** منصوب بما أغنت **﴿أمر ربك﴾** عذابه ونقمته **﴿تَتَّبِعِب﴾** تخسير يقال: تبَّ إذا خسِر، وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران.

وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٧٦﴾.

محل الكاف الرفع تقديره ومثل ذلك الأخذ **﴿أخذ ربك﴾** والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك بلفظ الفعل. وقرى: إذ أخذ القرى **﴿وهي ظالمة﴾** حال من القرى **﴿الأيام شديداً﴾** وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بنذب يقتربه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن كَانَ عَدَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٧٦﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بنبوهم **﴿آية لمن خالف﴾** لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا وما هو إلا نموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى ونحوه: **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾** (1) **﴿ذلك﴾** إشارة إلى يوم القيامة؛ لأنَّ عذاب الآخرة دل عليه و **﴿الناس﴾** رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

﴿فإن قلت: لاي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله﴾ (2)؛ **﴿قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً مضرورياً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾** (3) تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب، **﴿يوم مشهود﴾** (4) مشهود فيه، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

ويوم شهدنا سليماً وعامراً

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود الذي كثر شاهده، ومنه قولهم: لفلان

وهو ضلال مبين لا يخفي على من فيه أئني مسكة من العقل، ونلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد الذي فيه رشد أي: وما في أمره رشد إنما هو غي صريح وضلال ظاهر مكشوف وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام وعلموا أن معه الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط **﴿يقدم قومه﴾** أي: كما كان قنوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: **﴿وما أمر فرعون برشيده﴾** وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله: **﴿يقدم قومه﴾** تفسيراً لذلك وإيضاحاً أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط، ويقال قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: مقدمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدم، ومنه: مقدم العين.

﴿فإن قلت: هلا قيل يقدم قومه فيوردهم ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكانه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة و﴿الورد﴾ و﴿المورود﴾ الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بشس الورد الذي يردونه النار؛ لأنَّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضده **﴿وتتبعوا في هذه﴾ في هذه الدنيا **﴿لعنة﴾** أي: يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة **﴿بشس الرغد المرفود﴾** رفدهم أي: بشس العون المعان، ونلك أن اللعنة في الدنيا رقد للعذاب ومدد له وقد رقدت باللعنة في الآخرة وقيل: بشس العطاء المعطى.**

ذَكَرَ مِنْ آيَاتِهِ الْقُرْآنُ فَخُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَتَّبِعِب ﴿١٧٨﴾.

﴿ذلك﴾ مبتدأ **﴿من أنباء القرى نقصه عليك﴾** خبر بعد خبر أي: نلك النبا بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك **﴿منها﴾** الضمير للقرى أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزروع القائم على ساقه والذي حصد.

﴿فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محل لها ﴿وما ظلمناهم﴾ بإهلاكنا إياهم **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** بارتكاب ما به أهلكوا **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾**

(1) سورة النازعات، الآية: 26.

(3) سورة التغاين، الآية: 9.

(4) قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به، مسكوتاً عنه، مبهماً، ومن الإبهام ما يكون، وتفخيماً، وهذا مكانه.

(2) قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى: ﴿إننا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة﴾ فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً إلخ.

مجلس مشهود وطعام محضور، قال:

في محفل من نواصي الناس مشهود

فإن قُلْتُ: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه؟ كما قال الله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ (1) قُلْتُ: للغرض وصف نك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التمييز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه بونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهدا كل من يشهده. وكذلك قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ (2) الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في فليصمه والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه يعني: فمن كان منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر لا يشهده المقيم ويغيب عنه المسافر.

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوقٍ وَمَسِيءٌ ﴿١٥﴾

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها فيقولون: انتهى الأجل وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، فإذا جاء أجلهم يراد: آخر مدة التأجيل والعد إنما هو: للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ إلا لانتهاه مدة معدودة بحذف المضاف وقرئ: وما يؤخره بالياء. قرئ: يوم يأت بغير ياء ونحوه قولهم: لا أدر حكاة الخليل وسببويه، وحذف الياء والاحتراز عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قُلْتُ: فاعل يأتي ما هو؟ قُلْتُ: الله عز وجل كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾ (3) ﴿ويأتي ربك﴾ (4) ﴿وجاء ربك﴾ (5) وتعضده قراءة من قرأ: وما يؤخره بالياء، وقوله: ﴿بإذنه﴾ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم كقوله تعالى: ﴿أو تأتيهم الساعة﴾ (6).

فإن قُلْتُ: بما انتصب الظرف؟ قُلْتُ: إما أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار انكر، وإما بالانتهاه المحذوف في قوله: ﴿إلا لأجل معدود﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قُلْتُ: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم فقد جعلت

اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدت الشيء بنفسه؟ قُلْتُ: المراد إتيان هوله وشدائده ﴿لا تكلم﴾ لا تتكلم وهو نظير قوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أنن له الرحمن﴾ (7).

فإن قُلْتُ: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ (8) وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ (9) قُلْتُ: ذلك يوم طويل له مواقف ومواقف وفي بعضها يجاللون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿فمنهم﴾ الضمير لأهل الموقف ولم ينكروا لأن ذلك معلوم ولأن قوله: ﴿لا تكلم نفس﴾ يدل عليه وقد مر ذكر الناس في قوله: ﴿مجموع له الناس﴾ (10) والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي الْأَنْرِ لَمْ يَبْزُوا وَشَقِيحٌ ﴿١٦﴾

قراءة العامة بفتح الشين، وعن الحسن: شقوا بالضم، كما قرئ: سعدوا. والزفير إخراج النفس. والشهيق رده قال الشماخ:

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ عَزْرٌ مُّجْدُورٌ ﴿١٨﴾

﴿ما دامت السموات والأرض﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها هي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ (11) وقوله: ﴿وأورثنا الأرض نبتوا من الجنة حيث نشاء﴾ (12) ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلمهم ويظلمهم إما سماء يخلقها الله، أو يظلمهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء، والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد.

فإن قُلْتُ: فما معنى الاستثناء في قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قُلْتُ: هو: استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب

(7) سورة النبا، الآية: 38.

(8) سورة النحل، الآية: 111.

(9) سورة المرسلات، الآيات: 35 و36.

(10) سورة هود، الآية: 103.

(11) سورة إبراهيم، الآية: 48.

(12) سورة الزمر، الآية: 74.

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) سورة البقرة، الآية: 185.

(3) سورة البقرة، الآية: 210.

(4) سورة الانعام، الآية: 158.

(5) سورة الفجر، الآية: 22.

(6) سورة يوسف، الآية: 107.

وكما يجوز أن تكون: مصدرية وموصولة أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾⁽⁶⁾ أي: حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباهم.

فإن قُلْتَ: كيف نصب ﴿غير منقوص﴾ حالاً عن النصيب الموفى؛ قُلْتَ: يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل، ألا تراك تقول: وفيتَه شطر حقه وثالث حقه وحقه كاملاً وناقصاً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَّتَ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ مِنْهُمْ وَإِنَّ مِنْكَ لَمِنْ مَرِيبٍ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُكُفِّرُنَّ رَبَّكَ أَعْمَلْتُمْ إِنْهُمْ بِمَا يَمْلُونَ حَبِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿فاختلف فيه﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن ﴿ولولا كلمة﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية أيضاً ﴿وإن كلاً﴾ التنوين عوض من المضاف إليه يعني وإن كلهم وإن جميع المختلفين فيه ﴿ليوفينهم﴾ جواب قسم محذوف. واللام في لما موطئة للقسم وما مزيدة والمعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم ﴿ربك أعمالهم﴾ من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلاً بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتباراً لاصلاها الذي هو التثقيل، وقرأ أبي: وإن كل لما ليوفينهم على أن إن نافية ولما بمعنى: إلا وقراءة عبد الله مفسرة لها؛ وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري، وسليمان بن أرقم: وإن كلاً لما ليوفينهم بالتنوين كقوله: ﴿أكلاً لماً﴾⁽⁷⁾ والمعنى: وإن كلاً مملومين بمعنى: مجموعين، كأنه قيل: وإن كلاً جميعاً كقوله: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعين﴾⁽⁸⁾. فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير.

لما قص قصص عبدة الأوثان ونكر ما أحل به من نعمة وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي: فلا تشك بعدما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم، تسلية لرسول الله ﷺ وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحاليين، وقد بلغك ما نزل بأبائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استثناء معناه: تعليل النهي عن المرية وما في ﴿مما﴾

سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقفاً منهم وهو رضوان الله كما قال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾⁽¹⁾ ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو فهو المراد بالاستثناء والدليل عليه قوله: ﴿عطاء غير مجنون﴾⁽²⁾ ومعنى قوله في مقابلته ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجنة عطاء الذي لا انقطاع له، فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا يخدعك عنه قول المجبرة⁽³⁾: إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكباير من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل باقتراثهم، وما ذلك بقوم نبذوا كتاب الله لما روي لهم بعض النوايب عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد⁽⁴⁾ وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً. وقد بلغني أن مر الضلال من اغترّب بهذا الحديث فاعتقد أن الكفار لا يخذلون في النار. وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المميز زاندا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه وتبنيها على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص فمعناه: أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير، فذلك خلو جهنم وصفق أبوابها، وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث ﴿غير مجنون﴾ غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله: ﴿لهم اجر غير ممنون﴾⁽⁵⁾.

فَلَا تَكُ فِي مَرِيٍّ مِمَّا يَمْذُوكَ مَا يَمْذُورُونَ إِلَّا كَمَا يَمْذُؤُاَبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُوهم نصيبهم غير متعصبي ﴿١٤﴾.

لما قص قصص عبدة الأوثان ونكر ما أحل به من نعمة وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي: فلا تشك بعدما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم، تسلية لرسول الله ﷺ وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحاليين، وقد بلغك ما نزل بأبائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استثناء معناه: تعليل النهي عن المرية وما في ﴿مما﴾

= الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيتَه نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه، والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفى الأخذ، ومن قال: أعطيت فلاناً حقه، كان جديراً أن يؤكد بقوله غير منقوص، والله أعلم.

(7) سورة الحجر، الآية: 19.

(8) سورة ص، الآية: 73.

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة هود، الآية: 108.

(3) يريد: أهل السنة، أمّا المعتزلة، فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر، وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد.

(4) أخرجه البزار.

(5) سورة التين، الآية: 6.

(6) قال أحمد: وهم، والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان =

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوق يلقون غيًّا﴾⁽⁴⁾ فإنك تعامل من لا يجهد ويحفظ عليك من لا يغفل، فداؤك ينكح فقد نخله سقم، وهيئ زانك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام. وقال سفيان: في جهنم وإد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمد بن مسلمة: الثياب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه»⁽⁵⁾ ولقد سئل سفيان عن ظالم اشرف على الهلاك في بركة هل يسقي شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت، فقال: دعه يموت ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ حال من قوله: فتمسك أي: فتمسك النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثم لا تنصرون﴾ ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلنت: فما معنى ثم؟ قلنت: معناها الاستبعاد؛ لأن النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

وَأَمِيرَ السَّلَاةِ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْرِكْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ ﴿١٤﴾

﴿طرفي للنهار﴾ غدوة وعشية ﴿وزلفاً من الليل﴾ وساعات من الليل، وهي: ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وأزلف إليه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأن ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف المغرب والعشاء، وانتصاب طرفي النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك: أقمته عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ونحوه ﴿وأطراف النهار﴾⁽⁶⁾ وقرئ: وزلفاً بضمين، وزلفاً بسكون اللام، وزلفى بوزن قربي، فالزلف: جمع زلفة كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون نحو: بسرة وبسر، والزلف بضمين نحو: بسر في بسر، والزلفي بمعنى: الزلفة كما أن القربي بمعنى: القريبة، وهو: ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: وزلفاً من الليل وقرباً من الليل، وحققها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة أي: أقم الصلاة طرفي النهار وأقم زلفاً من الليل على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل ﴿إن الحسنات

ولا أشقَّ عليه من هذه الآية ولهذا قال: «شيبنتي هود والواقعة وأخواتهما». وروي أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب فقال: «شيبنتي هود»⁽¹⁾، وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبنتي هود؟ فقال: «نعم» فقلت: ما الذي شيبك منها، أقتصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ قال: «لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت»، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه ﴿فاستقم كما أمرت﴾ قال: أفنقر إلى الله بصحة العزم.

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٤﴾

قرئ: ﴿ولا تركنوا﴾ بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم، ونحوه: قراءة من قرأ: فتمسك النار بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبيدة: ولا تركنوا على البناء للمفعول من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم ونكرهم بما فيه تعظيم لهم وتامل قوله: ﴿ولا تركنوا﴾ فإن الركبن هو: الميل اليسير وقوله: ﴿إلى الذين ظلّموا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم ولم يقل إلى الظالمين. وحكي: أن الموفق صلى خلف الإمام فقرا بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له: فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم؟ وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاثين ﴿ولا تطغوا﴾ ﴿ولا تركنوا﴾ ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه: ﴿لنتبينه للناس ولا تكتمونه﴾⁽²⁾ وأعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك أنتست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً، حين أناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يخلون الشك بك على العلماء، ويقفون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك⁽³⁾، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم؟

(4) سورة مريم، الآية: 59.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في مساعدة الكفار والمفسدين فصل في مجانية الظلم (الحديث رقم: 9423).

(6) سورة طه، الآية: 130.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3297).

(2) سورة آل عمران، الآية: 187.

(3) لعل هنا سقطاً تقديره في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحو لك في جنب ما أفسدوا لك.

والجودة بقية؛ لأنَّ الرجل يستبقي مما يخرج جوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم أي: من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

ان تذبوا ثم يأتيني بقتيتكم

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى كالتقية بمعنى التقوى أي: فهلا كان منهم ذوب بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية بوزن لقية من بقاء يبقيه إذا راقبه وانتظره، ومنه «بقينا رسول الله ﷺ»⁽⁷⁾، والبقية المرة من مصدره، والمعنى: فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم ﴿إلا قليلاً﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً مما أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. ومن في ﴿ممن أنجينا﴾ حقها أن تكون للبيان لا للتبويض؛ لأن النجاة إنما هي للناهيين وحدهم بدليل قوله تعالى: ﴿أنجينا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا﴾⁽⁸⁾.

فإن قلت: هل لوقوع هذا الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؛ قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً الأولى البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم، تريد: استثناء الصالحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت: في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكانه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً. كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البديل ﴿واتبع للذين ظلموا ما آتروا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، ونبهوه وراء ظهورهم وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي: واتبع الذين ظلموا يعني: واتبعوا جزء ما آتروا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزء إترافهم، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾؟

يذهبن السيئات﴾ فيه وجهان: أحدهما أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات بأن يكن لطفاً في تركها كقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾⁽¹⁾ وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري كان يبيع التمر، فاتته امرأة فأعجبهت فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهبت بها إلى بيته، فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: «انتظر أمر ربي» فلما صلى صلاة العصر نزلت فقال: «نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت»، وروي: أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة»⁽²⁾، وروي أن رسول الله ﷺ قال له: «توضأ وضوءاً حسناً، وصل ركعتين، إن الحسنات يذهبن السيئات» ﴿لذلك﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فاستقم﴾⁽³⁾ فما بعده ﴿تكرى للذاكرين﴾ عظة للمتعتين.

وَأَسِرَّ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾.

ثم كرر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتبنيه على مكان الصبر ومحلّه كأنه قال: وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالوصية وهو: الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاه عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاه عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ يَكَفُّرُونَ ﴿١٢﴾.

﴿فلولا كان من القرون﴾ فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل لولا في القرآن فمعناها هلا إلا التي في الصافات. وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء﴾⁽⁴⁾ ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾⁽⁵⁾ ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كنت تركن إليهم﴾⁽⁶⁾ ﴿أولو بقية﴾ أولو فضل وخير، وسمي الفضل

(4) سورة القلم، الآية: 49.

(5) سورة الفتح، الآية: 25.

(6) سورة الإسراء، الآية: 74.

(7) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «في وقت العشاء الآخرة» (الحديث رقم: 421).

(8) سورة الأعراف، الآية: 165.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(2) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة هود (الحديث رقم: 3115) والبخاري في كتاب التفسير ومن سورة هود، باب: «أقم الصلاة طرفي...» (الحديث رقم: 4687) ومسلم في كتاب التوبة باب: قوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (الحديث رقم: 6932).

(3) سورة هود، الآية: 112.

﴿وَكَلَامَ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبا ﴿نَقَصَ عَلَيْكَ﴾ و ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لكل و ﴿مَا نَثَبْتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من كَلَامٍ، ويجوز أن يكون المعنى: وكل اقتصاص نقص عليك على معنى، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك يعني: على الأساليب المختلفة، وما نثبت به مفعول نقص ومعنى: تثبتت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكثر الأدلة اثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَنُكْرَى * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعْمَلُوا﴾ على حالكم وجهتم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ كُلُّ شَيْءٍ فَاغْبِثْهُ
رَوَّكْتَ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وشه غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم ﴿ففاعبه وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ وقرئ: تعملون بالتاء أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صلَّق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف مكية

الرَّءْيَا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْبُرْهَانِ ﴿١﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿الكتاب المبين﴾ السورة أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشبهه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سالت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين:

قُلْتُ: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمراً؛ لأن المعنى إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو: عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزء الإتراف قالوا: أو للحال كأنه قيل: أنجبنا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزءهم.

فإن قُلْتُ: فقله: ﴿وكانوا مجرمين﴾؟ قُلْتُ: على اتروفا أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَنَّهَا مُمْسِكَتٌ ﴿١٣٧﴾

﴿كان﴾ بمعنى: صح واستقام. واللام لتأكيد النفي و ﴿بظلم﴾ حال من الفاعل والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى القرى ظالماً لها ﴿وأهلها﴾ قوم ﴿مصلحون﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيداناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَّا الْجِنَّةَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ يعني: لا اضطرهم إلى أن يكون أهل أمة واحدة أي: ملة واحدة وهي: ملة الإسلام كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾⁽¹⁾ وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرار، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختر بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلَفوا فلذلك قال: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

رَكُلًا نَّقَصَ عَلَيْكَ مِنَ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتَ بِهِ، فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَنْ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٣٩﴾

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92، وسورة المؤمنون، الآية: 52.

(2) ذكره ابن مردويه الواحدي في تفسيره الوسيط، وابن الجوزي والزبيعي 157/2.